أ.الشيخ محمد علي التسخيري
الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

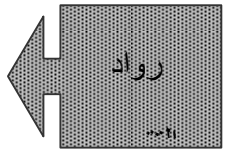

الامام الحكيم مرجع العصر الذهبي للحوزة العلمية

يمكننا أن نقول إن النصف الثاني من القرن العشرين يشكل احد ألمع العصور في الحوزات الشيعية والاسلامية على الإطلاق وربما كان هذا التحول انعكاساً للتحول الكبير في مسيرة النظام العالمي بعد الحرب العالمية الثانية الى حد كبير.

لقد شهدت الحوزات العلمية ظاهرتين ذهبيتين:

الاولى: تطور العملية الاجتهادية ويرجع بجذوره الى دور المرحوم الامام الوحيد البهبهاني (ت١٢٠٦هـ) واخوانه من العلماء من امثال السيد محمد بحر العلوم (ت١٢١٢هـ) والسيد العاملي (ت١٢٢٦هـ) والشيخ كاشف الغطاء الكبير (ت ١٢٢٨) والميرزا القمي (ت١٢٣١) وصاحب الرياض (ت١٢٣١) والشيخ

النجفي صاحب الجواهر (ت١٢٦٦) ودورهم في دحر الجمود الأخباري الذي اصاب العملية بالشلل، ولكن النهضة الاجتهادية الكبرى بدأت على يد الشيخ الاعظم الانصاري (ت١٢٨١) ثم قويت على يد علماء من امثال المرحوم اليزدي، والمرحوم الآخوند الخراساني ثم الميرزا النائيني والشيخ العراقي والشيخ الإصفهاني وكانت القمة تتمثل في الجيل التالي من مثل المرحوم الامام الحكيم، والمرحوم الامام الخوئي والمرحوم الامام الحائري والمرحوم الامام البروجردي والمرحوم الامام الخميني، واخيراً - فيما اعتقد - بلغت نضجها العظيم على يد أمثال الشهيد الامام الصدر.

الثانية: الحضور الحوزوي الفعال في المجالات الاجتماعية، وتراكم التجارب الاصلاحية والثورية لدى زعماء الحوزة عبر نهضة التنباك ضد الاستغلال، والثورة الدستورية في ايران ضد الاستبداد، وثورة العشرين ضد الاستعمار في العراق. وبعد أن حاول الاستعمار بمخططاته لاحتلال العالم الاسلامي كله تقريباً ان يبعد الأمة عن اسلامها باشاعة العلمانية البغيضة فكانت اقوى ردود الأمة تتمثل في النهضات التي قادتها الحوزات ضده مما انتج حضوراً قوياً في

Archive of SID
www.SID.ir

الساحة وعصراً ذهبياً لها توجته بانتصار الثورة الاسلامية بقيادة الامام الخميني(قدس سره الشريف).

ولم يكن ذلك ممكنا لولا وعي الجماهير المتلاحمة مع العلماء وفي ذلك يقول المرحوم الشهيد الصدر (بدأت الامة نفسها تعي وجودها وتفكر في رسالتها الحقيقية المتمثلة في الاسلام بعد ان اكتشفت واقع القواعد الفكرية الجديدة ونوع التجارب الاجتماعية المزيفة التي حملها اليها الاستعمار، ومن الطبيعي ان ينعكس هذا الوعي على حركة الاجتهاد نفسها ويؤكد احساسها الذاتي خلال التجربة المريرة التي عاشتها في عصر ما بعد الاستعمار بأن الاسلام كل لايتجزأ).[١]

في مثل هذا العصر الذهبي ظهر الامام الحكيم(قدس سره) وساهم اكبر المساهمة في ذهبيته فكان بحق وكما قال الامام الخميني(رحمه الله): مرجع العصر ولكل الشيعة في العالم.

ولقد حوت شخصيته ومرجعيته أبعاداً واسعة اهمها فيما اعتقد الابعاد التالية:

١- البعد العلمي: وقد تمثل هذا البعد في آرائه ونظرياته العلمية التي ضمنها كتبه الشهيرة وفي كتابه العلمي الشهير (مستمسك

العروة الوثقى) الذي بلغ اربعة عشر مجلداً وكان أول شرح لكتاب (العروة الوثقى) للامام اليزدي وقد ضمنه تحقيقاته ونظرياته العلمية الدقيقة بحيث عاد منهجاً للدراسات التالية التي ركزت على محورية هذا الكتاب بعد ان كانت تركز قبله على كتاب (التبصرة) للعلامة الحلي(قدس سره) والشرائع للمحقق الحلي (رحمه الله) وهكذا عاد المستمسك مرجعاً علمياً للحوزات يتردد فيها ويرسم لها مسيرتها العلمية.

ورغم أنه موسوعة فقهية فقد حوى الكثير من الآراء الأصولية الا ان آراءه الاصولية المعمقة جمعها كتابه الاصولي (حقائق الاصول) الذي يعد تعليقاً على كتاب (كفاية الاصول) للعلامة الكبير الخراساني وموضحاً رائعاً له.

وهكذا فان الحديث سيطول لو اردنا استقصاء كتبه العلمية التي وصلت الى الاربعين.[٢]

كما تتطلب معرفة البعد العلمي جيداً الحديث عن منهجه العلمي وعن قدرته الرائعة على تربية العلماء وادارة عملية البحوث في الحوزة العلمية النجفية، وهذا مالانقدر عليه في هذا المختصر.

٢- جهوده في بناء حوزة واعية وجيل اسلامي

Archive of SID
www.SID.ir

يبني مستقبلاً واعداً.

وهذا البعد لايقل اهمية عن البعد الأول بل يمنح الامام الحكيم الميزة المهمة التي يتمتع بها.

ويدخل في هذا البعد الكثير من النشاطات التي يقف المرء امامها على سعة من التخطيط وقوة وارادة فريدة وتضحيات جسيمة وبعد نظر حصيف واحاطة شاملة بمقتضيات العصر وهذه امور لاتجتمع الا في قليل من الشخصيات الالهية المخلصة الواعية ولقد وفقني الله تعالى لأن اعيش هذا العصر وادرك عظمة هذه الخطط المدروسة بدقة.

واذكر منها مايلي:

أ - شبكة وكلائه التي امتدت في مختلف مناطق العالم؛ للعراق وايران والباكستان والهند وتركيا ولبنان وغيرها. وقد اختيروا بكل ذكاء ليكونوا دماء العافية التي تسري في عروق الأمة، تنقل لها توجيهات المرجعية وتحل لها مشكلاتها وتعبئها اذا تطلب الأمر.

ب - مكتبات الامام الحكيم، وكان في طليعتها مكتبته العامرة المركزية في النجف الاشرف وكانت بالاضافة لتوفيرها المراجع العلمية للبحوث والتحقيقات مراكز توعوية ضخمة تقوم

بشتى النشاطات الاسلامية والحقيقة أنها لعبت اكبر الادوار في عملية التوعية والتعبئة الجماهيرية في احرج اللحظات السياسية.

ج - دعم الحركات الاسلامية السياسية والاجتماعية فقد كان الامام الحكيم نفسه من المجاهدين الذين انطلقوا يساهمون في عملية مقاومة الشعب لجنود الاحتلال واذنابهم وخبروا ألاعيبهم السياسية، ومن هنا فقد كان التخطيط السياسي يشمل ايجاد تشكيلات علمائية واعية من قبيل (جماعة العلماء) التي لعبت دوراً مهماً في عملية التوعية، وكان دور الشهيد الصدر فيها اساسياً وان لم يكن عضواً فيها لصغر سنه، وكانت مجلة الاضواء صوتاً مدوياً لها، وكان تشكيل جماعة علماء بغداد والكاظمية ايضاً احد هذه التشكيلات الموفقة جداً.

كما كان التخطيط يشمل تشكيل جمعيات واحزاب سياسية كان في طليعتها حزب الدعوة الاسلامية الذي لعب دوراً كبيراً في تحقيق الهدف ومازال يؤدي دوراً كبيراً بعد زوال نظام الطاغوت الصدامي البغيض.

وهناك الكثير من التنظيمات السياسية والاجتماعية الكبرى الاخرى التي نشأت في ظل هذه

Archive of SID
www.SID.ir

السياسة المرجعية من قبيل:

- مؤسسة منتدى النشر.
- المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى في لبنان.

وغيرها.

هذا بالاضافة لمواقفه السياسية الحاسمة في دعم الحركة السياسية في ايران بقيادة الامام الخميني(قدس سره) وادانته لسياسات الشاه المقبور ودعوة العالم الاسلامي للوقوف الى جانب الحركة الاسلامية الايرانية واحتضانها المؤسسات العلمية والخيرية.

د - ايجاد المؤسسات العلمية والتربوية والخيرية:

والحديث هنا مفصل ايضاً ويكفي ان نذكر مايلي:

١- تشجيع فكرة الاحتفالات التوعوية بالمناسبات.
٢- اصلاح المواكب الحسينية.
٣- تنظيم حركة التبليغ والاعلام لتغطي كل المناطق.
٤- تشجيع حركة التأليف في شتى فروع المعرفة الاسلامية.
٥- الدفع لايجاد المعاهد العلمية التربوية كمدارس منتدى النشر وبالتالي كلية

الفقه ومدارس الامام الجواد وكلية أصول الدين.

٦- تشجيع ايجاد المؤسسات الخيرية من قبيل الصندوق الخيري الاسلامي في الكاظمية وغيره.

وكلها اعمال جليلة تشكل تاريخاً ضخماً من المنجزات.

- اتخاذ المواقف السياسية المبدئية تجاه الانحراف العقائدي في العراق:

والحديث في هذا المجال طويل والوقائع كثيرة.

ويكفي أن نقول ان الامام الحكيم(قدس سره) من خلال هذه المواقف افشل خطط الشيوعيين في السيطرة على عقول الناس وقلوبهم بعد انقلاب ١٩٥٨ وبالتالي السيطرة على مقاليد الحكم، وكانت فتواه المشهورة (الشيوعية كفر والحاد) من اقوى المواقف.

كما أن مواقفه أفشلت بلا ريب خطط البعثيين العفلقيين ومنعتهم من تحقيق أهدافهم، ليرفع الراية من بعده الإمام الشهيد الصدر الذي قضى على كل أحلامهم رغم أنهم قتلوه.

زعموا بأن قتل الحسين يزيدُهم

كذبوا لقد قتل الحسين يزيداً

Archive of SID
www.SID.ir

٣- رؤيته الإسلامية العامة ودفاعه عن قضايا الأمة وحركته التقريبية. وهذا جانب مهم من جوانب رؤيته ومرجعيته الفذة قد لا يلاحظه الآخرون.

ومن الواضح أنه ينطلق فيه من منطلق أهل البيت(ع) ومنطقهم الوحدوي الذي يعمل على تعبئة الصفوف لتحقيق الأهداف الكبرى.

ولقد صبغ هذا الاتجاه كل مرجعيته فكانت له مظاهر متنوعة نذكر منها:

١ - تربيته لأبنائه وتلامذته تربية وحدوية، وهذا ما نشهده يتجلى في شخصية نجله الشهيد آية الله السيد محمد باقر الحكيم الذي قدم أكبر الخدمات لهذه القضية في كل مكان من أنحاء العالم الإسلامي، وترأس المجلس الأعلى للتقريب بين المذاهب الإسلامية وساهم في كتابة أسس مسيرته وألّف كتبا في هذا المجال مما أهله ليكون أحد الروّاد في هذا المجال، ولقد شهدت عمق إيمانه بهذا الطريق، وتلهفه لمواصلته، وتحرقه وتألمه من عدم تفهم البعض لأبعاده المقدسة.

كما نجده يتجلى في شخصية تلميذه الكبير النابغة آية الله السيد محمد تقي الحكيم الذي

طفحت كتاباته بهذه الروح وخصوصاً كتابه (أصول الفقه المقارن) الذي تشرفنا بتدريسه لنا، وكان المرحوم يشجعه على حضور المؤتمرات الدولية.

٢- مواقفه المبدئية من قضايا الأمة من قبيل:

أ - مسألة فلسطين:

وهي قضية حمل همها ودافع عنها بكل قوة فندد بقرار الأمم المتحدة بالاعتراف رسمياً بإسرائيل الصهيونية عام ١٩٤٨م واعتبر كرامة الأمة وكيانها مرتبطة بهذه القضية، ودعا إلى تعبئة كل الجهود لإفشال خطط العدو، ورأى أن الحل يكمن في سلوك السبيل الإسلامي.

وأرسل رسائله إلى بعض المؤتمرات الإسلامية من قبيل مؤتمر العالم الإسلامي الذي انعقد في عمان عام ١٩٦٧ بعد النكبة ليعلن فيها أسفه لما آلت إليه أوضاع المسلمين ويوضح مسؤولية الحكام والعلماء ولزوم حمل المسؤولية إلى الوحدة الإسلامية ورفض أساليب المساومة والتركيز على إسلامية القضية واعتبر ان العمليات الاستشهادية جائزة بل هي من الواجبات الدينية إذا تمت تحت قيادة حكيمة

Archive of SID
www.SID.ir

مما ترك أكبر الأثر في سير عمليات المقاومة وتبع ذلك سفر ياسر عرفات إلى النجف ولقائه بالإمام الحكيم (قده).

وهكذا كان يحرك القضية ويساندها بشتى الأساليب ويحرض على الانضمام لصفوف الحركة الفلسطينية وقد أجاز حتى شراء أوراق اليانصيب لصالحها رغم ان العلماء كانوا يحرمون مثل هذه المعاملة[٣].

وقد قام بتحركات قوية بعد حريق المسجد الأقصى ليثير الحماس في قلوب الجماهير.

ب - وقوفه ضد إثارة الفتن الطائفية رغم إقدام الاستعمار على تحريك عملائه لإثارتها عبر اهانة المقدسات (كقضية الجبهان).

جـ - دفاعه عن العثمانيين ضد الانجليز، وعن الأكراد في العراق عندما تعرضوا للظلم والقهر، وعن المفكر سيد قطب بعد صدور الحكم بإعدامه.

د - دفاعه عن حركة التقريب بين المذاهب وتأييدها والاتصال المستمر مع شيوخ الأزهر الشريف حولها.

هـ - تأييده لمشاركة علماء الشيعة في

المؤتمرات الدولية مما كان له أكبر الأثر في التقريب.

و - سعيه الحثيث لإيجاد حالة من قبول (العلويين) لدى المسلمين ومحو حالة التنافر بإزالة أسبابها.

ز - اقدامه الجريء على رفض بعض البدع التي اراد بعض المنتسبين الى اهل العلم تنفيذها خدمة لمصالح شخصية رخيصة فأمر بتحريمها وانقذ الامة من الفتنة.

وفي الختام؛

فانه كان من اللازم التعرض للمحن التي كابدها المرحوم الامام الحكيم (قدس سره) سواء من الحكام المستبدين من امثال عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف والبعثيين وبالخصوص من صدام المجرم واحمد حسن البكر، او من انتسبوا الى اهل العلم اما جهلاً او حسداً او من غيرهم.

وما جرى بعده على الحوزة العلمية وعلى علمائها وعلى ابناء اسرته الابطال وخصوصاً الشهداء الكثير منهم.

ولكن الصبر والاحتساب وتحمل الشدائد في سبيل الله هو ديدن هؤلاء العظام الذين يقل ان يجود بهم الزمان وهذه الاسر الشريفة وخصوصا

Archive of SID
www.SID.ir

العلوية منها.

فلنحتسب ذلك عند الله تعالى ونسأله جل وعلا أن يجعل ثواب ذلك عزة الأمة وعلاءها وانتصارها على اعدائها وتحقيقها للمرتبة التي ارادها الله لها.

رحمه الله رحمة واسعة وحشره في عليين مع النبيين والشهداء والصديقين وحسن اولئك رفيقاً.

الهوامش:

١ - من مقالة حول (الاتجاهات المستقبلية للاجتهاد).
٢ - يراجع كتاب الاستاذ تبرائيان (الامام الحكيم محيي الحوزة النجفية) ص١٩٢.
٣ - كتاب (الإمام الحكيم). للاستاذ تبرائيان ص ٤٥٥.

Archive of SID

www.SID.ir